

تجليات الأبعاد اللسانية الغربية الحديثة في الموروث اللغوي العربي الأصيل
-مقاربة إبستمولوجية منهجية-

Manifestations of modern Western linguistic dimensions in the
authentic Arabic linguistic heritage
-A methodological epistemological approach-

حسان عساس *

مخبر أبحاث في التراث الفكري والأدبي

بالجزائر -الواقع والمأمول-

جامعة باتنة 1

hassan.assas@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025-12-27

تاريخ الإرسال: 2025-06-14

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مدى فاعلية استثمار المنجزات اللسانية الغربية بمختلف مدارسها على اللغة العربية في ضوء الموروث اللغوي العربي، كما تهدف إلى إقامة مقابلة وحوار بناء بين النظريات اللسانية الحديثة والتراث اللغوي العربي، محاولة الكشف عن العلاقة التي تربط النحو العربي باللسانيات الحديثة، وكذا الرد على أولئك الذين يقولون بموت النحو مدعين أنه أصبح من الماضي لا قيمة له في ضوء رهان العصر التكنولوجي.

تتجلى أهمية هذه الدراسة في محاولة استثمار النظريات اللغوية الحديثة في قراءات الموروث اللساني عند العرب والتأصيل لها في التراث اللغوي العربي؛ إذ تنطلق هذه الدراسة من قاعدة مفادها: إلى أي مدى يمكن تطبيق النظريات اللسانية الغربية على نظام اللغة العربية؟ وهل يمكن أن تتقاطع هذه النظريات مع الدرس اللغوي العربي القديم؟ وهل هذا التقاطع مبني على أسس نظرية ومنهجية؟
الكلمات المفتاحية: نظريات لسانيات غربية؛ لغة عربية؛ تراث؛ أصالة؛ منهج.

• المؤلف المراسل.

Abstract:

This study seeks to highlight the effectiveness of leveraging Western linguistic achievements—across various schools of thought—in relation to the Arabic language within the framework of Arabic linguistic heritage. It also aims to establish a constructive comparison and dialogue between modern linguistic theories and classical Arabic linguistic traditions. Additionally, it responds to those who claim the "death of grammar".

The significance of this study lies in its attempt to utilize modern linguistic theories in re-examining the Arabic linguistic heritage and to root these theories within the Arabic linguistic tradition. The study is guided by the following questions: To what extent can Western linguistic theories be applied to the structure of the Arabic language? Can these theories intersect with classical Arabic linguistic studies? And is this intersection based on solid theoretical and methodological foundations?

Keywords: Western linguistic theories, Arabic language, heritage, authenticity, methodology.

مقدمة:

إن اللغة باعتبارها نظاما تواصليا تحقق النزعة التواصلية التي يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، هذا الشيء جعلها تحظى بدراسات تهدف إلى اكتشاف جوهر هذا النظام، ولعل أبرز علم حديث اهتم بدراسة هذا الجوهر، علم اللغة أو ما يعرف بالمصطلح الحديث اللسانيات، وهذه الأخيرة مرت بثلاث مراحل كبرى، بدأها سوسير بالمدرسة البنيوية التي أرسى دعائمها في القرن التاسع عشر من خلال كتابه الموسوم بـ (محاضرات في اللسانيات العامة 1916 م)، ثم أحدث تشومسكي ثورة عالمية في المرحلة الثانية لما أسس النظرية التوليديدية التحويلية سنة 1957م بأفكاره التي جاءت ردا على البنيوية، أما المرحلة الثالثة فعرفت قفزة كبيرة بفضل المدرسة التداولية التي لم تقف عند حدود الجملة، وأسسها هايمز، هذه المراحل لم تنطلق من فراغ بل تأثرت بمراحل سابقة خاصة المرحلة الثانية التي تتقاطع مبادئها وأسسها مع التراث اللغوي العربي خاصة، هذا الأخير الذي أبدع أصحابه في تحليلهم للغة العربية صوتا وصرفا ونحوا ودلالة ومعجما. نحن نهدف في هذه الدراسة إلى إقامة مقابلة

وحوار بناء بين النظريات اللسانية الحديثة والتراث اللغوي العربي ، وذلك في البعدين النظري والتطبيقي، محاولين الكشف عن العلاقة التي تربط النحو العربي باللسانيات الحديثة، وكذا الرد على أولئك الذين يقولون بموت النحو مدعين أنه أصبح من الماضي لا قيمة له في ضوء رهان العصر التكنولوجي؛ حيث إن إعادة قراءة التراث اللغوي بفكر نير ومنهج قويم في ضوء النظريات اللغوية الحديثة صار أمرا ضروريا ومطلبا ملحا خاصة بعد اطلاعنا على الزخم المعرفي واللغوي الذي يتميز به الموروث العربي، فهو يستحق البحث والتنقيب لمحاولة فهمه وسبر أغواره.

تتجلى أهمية هذه الدراسة في محاولة استثمار النظريات اللغوية الحديثة في قراءات الموروث اللساني عند العرب والتأصيل لها في التراث اللغوي العربي؛ إذ تنطلق هذه الدراسة من قاعدة مفادها: إلى أي مدى يمكن أن تتقاطع النظريات اللسانية الحديثة مع الدرس اللغوي العربي القديم؟ وهل هذا التقاطع مبني على أسس نظرية ومنهجية؟ وكيف يمكن الكشف عن أبعاد الدرس اللغوي الحديث في الدرس اللغوي عند العرب؟

1- الجهود اللغوية في التراث العربي:

1.1- في المستوى الصوتي:

أولى العلماء العرب القدامى عناية كبيرة للغة العربية، وحاولوا دراستها من كل الجوانب، فكان لهم السبق في كثير من الجوانب اللغوية خاصة منها الصوتية، وما يشهد لذلك هو أن الدراسات الغربية تقر بذلك. وتشيد بما في تراثنا العربي، يقول برجستراسر " ولم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق وهما أهل الهند، (...) والعرب. وأول من وضع أصوات هذا العلم من العرب الخليل بن أحمد الفراهيدي"¹.

إن النظام الصوتي هو أول نظام لغوي اهتم به علماء العرب القدامى؛ حيث إن الدراسات القرآنية لعبت دورا كبيرا في إثراء الحصيلة الصوتية العربية، خاصة تلك المتعلقة بأحكام التجويد والقراءات القرآنية المتنوعة. ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من أبدع في هذا المجال من خلال بحوثه اللسانية الرائدة؛ إذ يعد المؤسس الأول لعلم العروض من خلال بلورته

¹ برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية (1982)، تعليق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي،

القاهرة، مصر، ص: 11.

لستة عشر بحرا شعريا مستمدة من الصوت العربي، وهذا العلم أصبح المصدر الأول في الدراسات الحاسوبية من خلال قاعدة البيانات المبنية على شفرات التفعيلات التي أبدع فيها الخليل، ولم يقف عند هذه المحطة فحسب؛ بل يعد أول من ألف أكبر معجم عربي آنذاك زاهر بثروة لغوية عربية هائلة، معتمدا في ذلك على النظام الصوتي من خلال ترتيب مداخله ترتيبا صوتيا منطلقا من أول صوت يصدر من أقصى الحلق وهو صوت العين؛ الذي حمل عنوان معجمه - معجم العين- والذي صنف مفرداته إلى مستعملة ومهملة، وهذا أيضا مستمد من الترتيب الصوتي للمفردة، وانتبه الخليل إلى مخارج الحروف وصفاتها وأبدع فيها إبداعا لم يختلف عما توصلت إليه المختبرات الصوتية الحديثة، رغم أن الخليل بعيد كل البعد عن التكنولوجيا.

ويقول فيرث "إن علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية"¹، من خلال ما سبق يتضح أن العلماء العرب القدامى أبدعوا إبداعا لا نظير له في مجال الصوتيات وهذا بفضل اللغويين والنحاة والنقاد والبلاغيين. أما ابن جني [ت392هـ] فقد اهتم بالأصوات ودلالاتها خاصة في كتابيه (الخصائص) و(سر صناعة الإعراب) وهي مستمدة من طبيعة وصفات الأصوات في حد ذاتها، فاللغة عند ابن جني: "أما حدها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"²، وإليه ينسب مصطلح علم الأصوات الذي لا يزال مستعملا في الدراسات اللسانية الحديثة.

يذهب ابن جني إلى أن هناك مناسبة بين الصوت ودلالته باعتبار مخرجه وصفته فيقول "ومن ذلك قولهم خضم وقضم، فالخضم للأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك، وفي الخضم قد يدرك الخضم بالقضم أي قد يدرك الرخاء بالشدّة واللين بالشطف ...، فاختر الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حدوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"³ من خلال هذا القول يمكن للباحث اللساني أن يستشف مدى عبقرية ابن جني في مجال الفونولوجيا التي تهتم بدراسة الأصوات من حيث وظيفتها في السياق اللغوي؛ حيث

¹ أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب (1988)، عالم الكتب، ط6.

² المصدر نفسه، ص: 33.

³ -أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص112.

انتبه إلى ظاهرة لغوية حديثة وهي الفونيم الذي هو أصغر وحدة صوتية من خلالها يتغير المعنى .

2.1- في المستوى التركيبي:

إن اللغة العربية ولدت دون قواعد مضبوطة في العصر الجاهلي؛ إذ كان الشعراء يؤلفون قصائد موزونة نظماً وتركيباً من خلال حدسهم وسليقتهم اللغوية، وبعد ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، ثم دخول الأعاجم هذا الدين الجديد، والرغبة في فهم معانيه وتعلم اللغة العربية انتشر اللحن في أوساط البيئة العربية، فكان لابد من عصمة الألسنة من الوقوع في الخطأ؛ فنشأ بهذا علم قائم بذاته يهتم بأواخر الكلام، حيث وضعه أبو الأسود الدؤلي بأمر من علي رضي الله عنه، ولعل السبب الرئيس وراء وضع الحركات على الحروف ووقوع أعرابي في لحن القرآن حيث قرأ قوله تعالى ' إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ' - سورة التوبة، الآية 04- بكسر اللام في كلمة رسول وتغير المعنى كلياً لأن أي تغير في المبنى يؤدي إلى تغير في المعنى؛ فكان لا بد من وضع القواعد والأسس التي من شأنها حماية اللغة العربية لغة القرآن الكريم، والشيء الذي وُفق فيه اللغويون العرب القدامى هو جعلهم علم الصرف وعلم النحو متكاملين لا يمكن الفصل بينهما.

إن ما خلفه اللغويون العرب في هذا المجال يعد إنجازاً لسانياً مبنياً على أسس وقواعد مضبوطة تعكس مكانة اللغة العربية من جهة، وقيمة نظامها التركيبي من جهة أخرى، وفي هذا يقول تمام حسان " لم أخف إعجابي بأصالة التفكير لدى نحائنا القدامى، ولم أحجم عن وصف بنائهم النظري الذي جردوه تجريداً من المسموع بأنه صرح شامخ وجهد عقلي من الطراز الأول"¹.

يعد سيبويه المؤسس الحقيقي للنظام التركيبي العربي بفضل جهوده اللغوية التي جمعها في كتابه الضخم -الكتاب-، والذي قسمه إلى جزئين متكاملين؛ حيث تناول في الجزء الأول الكلمة من حيث التعريف والتنكير، الإفراد والتثنية والجمع، الإعراب والبناء، باب المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، أما الجزء الآخر فجميع أبوابه صرفية بحتة؛ حيث تناول:

¹- تمام حسان، الأصول: دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة. البلاغة،

(2000)، عالم الكتب، ص: 09.

التصغير ونون التوكيد وجمع التكسير وأوزان المصادر وصيغ الأفعال ومعاني الزوائد واسم الآلة، أسماء المكان وأفعال التعجب والإمالة والتوقف والإعلال والإدغام .
مما سبق يمكن القول إن سببويه أسهم في بناء قواعد اللغة العربية وتقعيدها .

2- الكتابات اللسانية العربية الحديثة ونظرتها إلى التراث

إن تأثر العلماء العرب المحدثين بما قدمه الغرب في الآونة الأخيرة جعلهم يؤلفون كتباً كثيرة باللغة العربية، تجعل من اللسانيات الغربية موضوعاً لها خاصة بعد عودتهم من البعثات العلمية؛ حيث درس أكثرهم عند علماء الغرب البريطانيين أمثال فيرث صاحب النظرية السياقية، ولقد كان لاتصال الثقافة العربية أثر بارز على الدراسات اللغوية، حيث راح الباحثون العرب ينهلون من معين المناهج اللسانية الغربية، ويطلعون بها دراساتهم للغة العربية وتراثها مما أثمرت خطاباً لسانياً عربياً جعل بعض الدارسين يطلقون على أطيافه المختلفة تسمية (اللسانيات العربية) الذي يبقى مصطلحاً واهياً حسب ما يراه الباحث مصطفى غلفان في كتابه "اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية"؛ إذ يفرق بين اللسانيات العربية ولسانيات العربية، ويرى أن الأولى تعني الكتابات التي تكتب في اللسانيات العامة باللغة العربية؛ أي تتخذ من النظريات اللسانية الحديثة موضوعاً لها، في حين يرى بأنه يجب تأسيس لسانيات العربية التي يجعل فيها اللساني العربي اللغة العربية موضوعاً له.

فالهدف من لسانيات العربية هو "الاشتغال باللغة العربية سواء تعلق الأمر باللسانيات العامة أم لسانيات العربية أم لسانيات أية لغة من اللغات".¹

صنف الباحث حلمي خليل الدراسات اللسانية العربية إلى ثلاثة تيارات:

- 1.2- الوصفية ونقد التراث اللغوي: "ولقد مثل لهذا الاتجاه بكتاب {دراسات نقدية في النحو العربي 1957} لعبد الرحمن أيوب، وكتاب {اللغة بين المعيارية والوصفية 1958} لتمام حسان و {دراسات في علم اللغة 1971}. لكمال بشر"

¹- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس والمنهجية، جامعة الحسن الثاني عين الشق (1991)، رسائل و أطروحات، رقم 4، ص: 34.

2.2- التحليل البنيوي للغة: "ومن الدراسات التي تمثل هذا الاتجاه – في نظره-كتاب {مناهج البحث في اللغة 1955} تمام حسان و {علم اللغة مقدمة للقارئ العربي 1962} لمحمود السعران.¹

3.2- تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية:

ويرى حلي خليل أن كتاب : {اللغة العربية معناها ومبناها 1973} بقي وحيدا في مجال تطبيق البنيوية الوصفية على اللغة العربية²

انقسم المحدثون إلى ثلاثة فرق، فريق يؤيد التراث ويتشبه به، ويرفض الحداثة رفضا تاما ومن الذين ينادون بهذا نجد فارس الشدياق والبستاني واليازجي والكرملي والطباطبائي، وفريق ثان انتقد التراث انتقادا لاذعا ونادى إلى تبني النظريات اللسانية الحديثة وأعلن قطيعة تامة بالتراث، ومن بين هؤلاء عبد الرحمن أيوب، في كتابه (دراسات نقدية في النحو العربي 1957)؛ حيث انتقد نظرية العامل انتقادا لاذعا كما أكد على عدم وجود العلامة الإعرابية، ونجد أيضا تمام حسان في مراحل الأولى الذي ألف كتابا يعد فيه النحو العربي نحوا معياريا، وهذا الكتاب موسوم بـ'اللغة بين المعيارية والوصفية'...، وفريق ثالث توفيقي، حاول أن يوفق بين الموقفين؛ إذ يرى أنه لا يمكن فصل التراث عن النظريات اللسانية الحديثة، وذلك بعدهما منهجين متكاملين؛ إذ حاول أصحاب هذا الموقف تطبيق النظريات اللسانية الحديثة على اللغة العربية؛ ومن بين هؤلاء تمام حسان في مراحل تأليفه المتأخرة وذلك أثناء حديثه عن نظرية تضافر القرائن محاولا تبني مبادئ المدرسة البنيوية الوصفية في كتابه 'اللغة العربية معناها ومبناها 1973'، وكما نجد إبراهيم أنيس في كتابه 'الأصوات اللغوية 1946' وعبد القادر الفاسي الفهري الذي حاول تطبيق النظرية التوليدية التحويلية على اللغة العربية في كتابه 'اللسانيات واللغة العربية 1985' وأخيرا نجد أحمد المتوكل الذي يعد رائد النحو

¹ -حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته (2009)، دار الكتب الجديد المتحدة، ط1، ص 412.

² --ينظر:حلي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي. دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، ص 167-168.

الوظيفي؛ إذ حاول تطبيق أسس النحو الوظيفي على اللغة العربية في كتبه المختلفة (الوظائف التداولية في اللغة العربية). (قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية).
صنف مصطفى غلفان الكتابات اللسانية العربية إلى ثلاثة اتجاهات وفق ثلاثة معايير يرى أنها كافية لإدراك هذه الكتابات اللسانية وفحواها؛ فلقد أطلق مصطلح الكتابات اللسانية على الدراسات اللغوية العربية الحديثة، إذ يرى أن هذه الدراسات لم تستند إلى معايير منهجية واضحة، ومن خلال هذه المعايير المتمثلة في الموضوع، الهدف، المنهج، صنف الكتابات اللسانية العربية الحديثة إلى:

3.2-1- الكتابات التمهيدية من حيث:

- 1/الموضوع: النظريات اللسانية الغربية.
- 2/الهدف: تقريب ونقل الثقافة اللسانية الغربية إلى القارئ العربي.
- 3/المنهج: منهج تعليمي.

3.2-2- لسانيات التراث من حيث:

- 1/الموضوع: التراث اللغوي العربي.
- 2/الهدف: تمجيد التراث ورفض الحدأة.
- 3/المنهج: قراءة التراث.

3.2-3- الكتابات المتخصصة من حيث:

- 1/الموضوع: اللغة العربية.
- 2/الهدف: تطبيق النظريات اللسانية الغربية على اللغة العربية.
- 3/المنهج: بنيوي، توليدي، وظيفي.

وفي الختام يمكن القول إنه لا يمكن فصل التراث عن الحدث ؛ لأن إحداث قطيعة عن التراث يؤدي إلى فصل الحياة عن التاريخ، وإحداث قطيعة عن الحدأة يؤدي إلى فصل التاريخ عن الحياة؛ لذا يجب أن نكون مفكرا لسانيا عربيا يجعل اللغة العربية موضوعا له لا مفكرا عربيا لسانيا يفرض اللسانيات على اللغة العربية.

3- أوجه التقاء النظريات اللسانية الحديثة مع التراث اللغوي العربي:

لقد مر تاريخ اللسانيات الحديثة بثلاث مراحل كبرى؛ بدأها فيرديناند دو سوسير من خلال محاضراته التي جمعها طلبته في كتاب موسوم بـ "محاضرات في اللسانيات

العامة" عام 1916 ، والذي يحمل أفكارا جديدة لم تكن من قبل، مؤسسا بذلك مدرسة قائمة بذاتها، تندرج ضمنها الكثير من النظريات اللسانية المعاصرة وهذه المدرسة سميت بالبنوية الوصفية التي تدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، وتعتمد على الملاحظة والوصف، وهذا الأخير أي المنهج الوصفي فتح الأبواب لمرحلة ثانية تزعمها تشومسكي الذي أحدث ثورة في ميدان اللسانيات وانتقد انتقادا لاذعا المنهج الذي اعتمده البنيويون، وعده منهجا قاصرا كما انتقد أفكار النظرية السلوكية التي تبناها بلومفيلد وهاريس والتي تعتمد على مبدأ المثير والاستجابة وتهمل المعنى؛ حيث جاء تشومسكي بمنهج وصفي تفسيري، يصف من خلاله آلية الكلام ويفسرها ويتجلى ذلك في نظريته التي لا تبتعد مبادئها كثيرا عن النحو العربي وهي النظرية التوليدية التحويلية، ولا يتسع المقام هنا لذكر مبادئ كل مدرسة على حدى؛ لأن ما يهمنا في هذا العنصر هو التطرق إلى المفارقات العجيبة التي يتميز بها التراث العربي الأصيل واللسانيات المعاصرة. أما المرحلة الثالثة التي انتقل فيها أصحابها من صنف (الجملة) إلى مستوى واسع (النص) ويتجلى ذلك في المدرسة التداولية التي أسسها العالم الغربي (هايمز) والتي تربط الكلام بالمقام الذي قيل فيه، وتدمج المستوى التركيبي بالدلالي والتداولي، وهو ما غاب في المدارس اللسانية السابقة، ولعل أهم نظرية تندرج ضمن هذه المدرسة نظرية النحو الوظيفي التي ظهرت عام 1978 في هولندا بزعماء سيمونديك والتي أرست قواعدها وأسسها في الوطن العربي أحمد المتوكل.

نحاول استعراض أوجه الاتفاق والاختلاف بين التراث العربي والنظريات اللسانية المعاصرة مدركين أن للتراث العربي قيمة كبيرة جدا في الدراسات اللغوية، وأن العرب سبقوا الغرب في كثير من القضايا اللغوية؛ فعندما ننظر في قضايا اللسانيات المعاصرة في العالم العربي نجد أنها واجهت إشكالية في التجديد وقد نجد من يحاول أن يجعل التراث خاليا من الملاحظات والمنهجية، وهذا خطأ؛ لأن القدامى أولوا اللغة العربية اهتماما واسعا، وقدموا ملاحظات ذات قيمة حول قضاياها وكانت آراؤهم تعد بالنسبة إلى زمانهم متطورة؛ وأنه يمكننا تتبع المفاهيم التي أتوا بها ومقارنتها ببعض المفاهيم في اللسانيات المعاصرة؛ لذلك سيقوم البحث بتتبع القضايا المعاصرة في اللسانيات خصوصا، ومحاولة إسقاط هذه المفاهيم على جهود القدامى العرب للوصول إلى حقيقة

مفادها أن التراث العربي القديم في مجال اللسانيات مليء بكثير من المفاهيم التي سبقوا فيها الغربيين بشكل واضح.

1.3- المدرسة البنوية والتراث العربي:

***المنهج الوصفي:** لقد تبني سوسير وأصحاب المدرسة البنوية المنهج الوصفي الذي يتخذ من الملاحظة والتصنيف والاستقراء أدوات له، ويتجلى ذلك أثناء تفريق سوسير بين الآنية و الزمنية ويرى الكثير أن اللسانيات وصفية، في حين يعتبرون النحو العربي معياريا يعتمد على مبدأ {قل ولا تقل} وما هو كائن لا ما يجب أن يكون ، إلا أن المتأمل في التراث العربي يجد أن النحو بدأ وصفيا والدليل على ذلك خروج العلماء العرب أمثال الخليل إلى البوادي وجمع اللغة العربية عن طريق المشاهدة .

اعتمد علماء العرب على مصدر من مصادر جمع اللغة وهو السماع الذي يتخذ هو الآخر من الملاحظة والتصنيف والوصف والاستقراء أدوات له، يمكن القول إن العرب ميزوا بين القاعدة والتفريع؛ فعندما أرادوا جمع اللغة احتاجوا إلى التفريع الذي يناسبه المنهج الوصفي، وعندما أسسوا القواعد وضبطوها انتقلوا إلى المعيارية لحماية الألسنة من الوقوع في الخطأ.

***تعريف اللغة:** يسوق ابن جني تعريفا للغة في القرن الرابع لا يزال يعاد من طرف اللسانيين الغربيين المحدثين إلى يومنا هذا، كونه تعريفا جامعا مانعا؛ حيث يقول ابن جني في كتابه (الخصائص) "أما حدها فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم."

1

***التفريق بين اللغة واللسان واللغة والكلام بين دي سوسير والجرجاني:** "فرق دي سوسير بين اللغة واللسان واللغة والكلام، وعد اللسان مختلفا عن اللغة ولكنه يقع ضمن اللغة فمثلا دي سوسير ميز بين La langue أي اللغة وبين Le parole أي الكلام والحديث، وهذا التفريق بين اللغة والكلام ذكره ابن جني في تعريفه لحد اللغة "بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" ²

¹- ابن جني: الخصائص. ج 1، ص: 33

²- المصدر نفسه، ص: 33

ومما ذكره الجرجاني في هذا المجال أنه فرق بين اللغة والكلام بأن جعل اللغة في الجانب النظري وجعل الكلام في الجانب التطبيقي، وأطلق على الأول (علم اللغة) وعلى الثاني (الوضع اللغوي) ومن ذلك قوله "واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فتسند إلى اللغة ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ و (ثم) له بشرط التراخي و(أن) و(إذا) لكذا؛ ولكن لأن يأتي لك إذا نضمت و ألفت رسالة أن تحسن التخير و أن تعرف لكل من ذلك موضعه."¹

*المدال والمدلول: ميز سوسير بين الدال والمدلول واعتبرهما وجهين لعملة واحدة، وهذا ما ذهب إليه البلاغيون العرب من أمثال الجاحظ والجرجاني وابن السكيت في كتبهم (البيان والتبيين) (دلائل الإعجاز) (مفتاح العلوم) على الترتيب. { لن نفصل في هذا العنصر للمزيد من المعلومات يراجع العنصر الأول الخاص بالجهود اللغوية للعرب القدامى في علم الدلالة.} ونكتفي بهذا القدر؛ لأن أصول المدرسة البنيوية عند سوسير كثيرة في التراث العربي. والمقام لا يسمح بالإحاطة بها.

2.3- حلقة براغ:

تأسست عام 1926 بفضل العالم الأنثروبولوجي {مالينوفيسكي} و{تروبسكوي} و{جاكسون} وصبت اهتمامها على علم الأصوات وعلم الأصوات الوظيفي {فونيتيك / فونولوجي} ومن مبادئها التي نجد معالمها في التراث اللغوي العربي ما يأتي:

- آلية التقابل: إحلال صوت مكان صوت فإذا تغير المعنى فهو فونيم مثل قال، جال، خال...، ونجد معالمها واضحة عند ابن جني؛ حيث فرق بين القضم والخضم...؛ حيث يقول " زمن ذلك قولهم خضم و قضم فالخضم للأكل الرطب كالبطيخ والقضاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم للصلب اليابس نحو قضمتم الدابة شعيرها ونحو ذلك وفي الخبر قد يدرك الخضم بالقضم ، أي قد يدرك الرخاء بالشدّة، واللين بالشظف، وعليه قول أبي الدرداء: يخضمون ونقضم والموعود الله، فالخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حدوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"².

¹- ينظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 73

² - ابن جني، الخصائص، ص: 29

● **الفونيمات الفوققطعية:** وهي المقطع والنبر والتنغيم والنغمة؛ حيث انتبه ابن جني إلى هذا النوع من الفونيمات وربطه بالدلالة السياقية، وفي مفهوم النبر الذي يعني القوة النسبية التي تستعمل في نطق الأصوات بحيث يكسب المقطع المنبور وضوحاً زائداً عن المقاطع الأخرى. فحين نقول: سير عليه وهم يريدون ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موصلها، وأنت تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فنقول: كان والله رجلاً وتريد في قوة اللفظ (بالله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً، أو نحو ذلك وكذلك سألناه فوجدناه إنساناً، لو تمكن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغني عن وصفه بقوله: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك إذ ذمته ووصفته بالضيق قلت سألناه وكان إنساناً، فتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك، إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك¹. ومن هذا النص نستشف فهم ابن جني لدور ظاهرة التنغيم في أداء المعاني المختلفة، وإن لم يسم هذه الظاهرة باسمها.

● **السمة المميزة عند جاكبسون:** انتبه إلها العرب أثناء حديثهم عن قضية التفخيم والترقيق مثل والله، بالله، فعندما ندرك أن لهذه الظاهرة وظيفة لسانية تسهم في اقتصاد اللغة العربية وجمالياتها؛ إذ إنها تفسر المعنى انطلاقاً من الملمح النطقي للكلمة؛ فمثلاً كلمتا 'مالي/ مالي' ليستا مفردة واحدة تحمل معنى واحداً؛ إذ يعد التفخيم ظاهرة لسانية وظيفية وفونيمية يتغير من خلاله المعنى؛ فمالي بالترقيق تعني نقودي، ومالي بالتفخيم تعني بلداً إفريقياً.

3.3- المدرسة الوظيفية: {أندري مارتيني}:

يؤكد مارتيني على أن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل وهذا ما ذهب إليه الجرجاني في نظرية النظم، وابن جني في تعريفه للغة.

*التغير الحر: يقابل اللهجات العربية أو القراءات القرآنية مثل صقر، زقر، سقر

¹ - ينظر: المصدر السابق، ج 2 ص: 370، 371.

*الاستبدال: ويكون على المستوى العمودي بإبدال وحدة مكان وحدة، ونجده عند النحاة بتسمية أخرى وهو المصدر المؤول، فعلى سبيل المثال يمكن استبدال الوحدة أن أعمل في قولنا يجب أن أعمل بالمفردة العمل فنقول يجب العمل.

*المونيم الصفري: وهو غياب علامة دليل على وجود علامة، وهو ما نجده في التراث العربي بشكل آخر؛ والمقصود هنا الضمائر المستترة وغياب علامات التأنيث مثل كتب الدرس، فنلاحظ أن الفاعل ضمير مستتر يمثل العلامة العدمية، وكذلك عندما نقول هند فهي اسم مؤنث؛ رغم غياب تاء التأنيث وهي العلامة العدمية هنا.

*التوسيع: وهو ما زاد عن المسند والمسند إليه ويقابله في النحو العربي الفضلة كالمفعول به والحال والتمييز.

*المنج: هو دمج مفهومين في دال واحد ويقابله في النحو العربي المشتقات مثل اسم الفاعل، فعند قولنا كاتب مزجنا فعل الكتابة بالذي قام بها أي اقتران الحدث بالزمن، وكذلك نجده في جمع التكسير...

*المونيم المتقطع: هو وحدة صرفية تتكون من جزأين منفصلين مثل ne pas بالفرنسية ويقابلها في النحو العربي أسلوب القصر والحصر {ما....إلا}.

3.4- النظرية التوزيعية:

*التوزيع: ظهور وحدة في موقع معين يستدعي بالضرورة وجود وحدة أخرى تناسبها، وهذا ما ذهب إليه ابن مالك في ألفيته حيث تحدث عن علامات الاسم حيث قال رحمه الله: بِالْجَرِّ وَالتَّنْوِينِ وَالنَّدَى وَالْوَاسِطَةِ لِلْأَسْمِ تَمْيِيزٌ حَصَلُ. *التصنيف: ويقابله الأبواب النحوية في التراث العربي 'باب المنصوبات، باب المجرورات، باب المرفوعات'.

3.5- النظرية السياقية:

التي يتزعمها فيرث: ونقتصر هنا على ما قدمه الجرجاني في نظرية النظم حول النظرية السياقية ومدى عبقريته؛ فقد تناثرت أقواله في كتابيه {دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة} ، فعبر عن توافق اللفظ مع المعنى، وعبر عن مدى الارتباط بين الكلمات بعضها البعض،

ومناسبتها للسياق والمقام الذي تذكر فيه بقوله " النظم هو توخي معاني النحو في معاني الكلم."¹

*نظرية الحقول الدلالية: نجدها في بدايات التأليف المعجمي؛ حيث كان العرب القدامى في بداية الأمر يرتبون مواد معجمهم حسب الحقول الدلالية فيقولون: هذا الكتاب في الإبل وهذا كتاب في اللباس، وهذا كتاب في الأطعمة...

6.3- المدرسة التوليدية التحويلية: تعد هذه النظرية أقرب النظريات اتفاقاً وتقاطعاً مع التراث اللغوي العربي، ويعود هذا إلى أن تشومسكي اطلع على مصادر كثيرة من التراث خاصة الكتاب {الكتاب لسيبويه} وسنعرض بإيجاز أهم النقاط التي تشترك بين تشومسكي وعلماء اللغة العربية القدامى.

*الحدس اللغوي: وهو نفسه الملكة اللغوية عند ابن خلدون، والسليقة اللغوية عند العرب.

*التحويل: ونجد قواعده وأسسه في النحو العربي خاصة عند سيبويه؛ وذلك أثناء حديثه عن الحذف والتقديم والتأخير والاعتراض (الفصل، الاختصار، الإيجاز، الاتساع والزيادة...الخ). ويذكر سيبويه أن العرب يغيرون الأكثر في كلامهم.

*البنية السطحية والبنية العميقة: إن أهم مبدأ اعتمد عليه تشومسكي في النظرية هو التفريق بين البنية السطحية والعميقة؛ حيث إن الأولى تعد الإنجاز الفعلي للكلام وهي ظاهرة في المستوى الصوتي والتركيبى والدلالي، أما الأخرى -أي البنية العميقة- فهي باطنة تكون على مستوى ذهن المتكلم، وتعد نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني السباقة مقارنة بما ذهب إليه تشومسكي؛ حيث يقسم الجرجاني نظرية النظم إلى أربعة أقسام: النظم ويمثل البنية السطحية؛ لأنه يركز على تناسق الكلمات فيما بينها ولا يتم الوصول إلى البنية السطحية إلا بوجود القسم الثاني والثالث وهما البناء والترتيب، أي بناء الكلمات وترتيبها، أما التعالق وهو القسم الرابع فيعنى بالبنية العميقة؛ لأنه يعنى بتعليق المعاني في الذهن.

*الجملة الأصولية وغير الأصولية: وهي الجملة الصحيحة نحويًا والمقبولة دلاليًا عند تشومسكي، أما غير الأصولية فهي المقبولة نحويًا وغير مقبولة دلاليًا، أو هي غير المقبولة

¹ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 361

نحوا ودلالة؛ إذ يسوق لنا مثالا مشهورا وهو الأحلام الخضراء عديمة اللون تنام بعنف، فهذه الجملة صحيحة نحويا وغير مقبولة دلاليا؛ لأنها لا تؤدي معنى، ونجد هذا الصنف من الجمل عند سيبويه أثناء حديثه عن باب الاستقامة في الكلام والإحالة؛ حيث يقول " فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيك غدا، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير مواضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت وكي زيدا يأتيك"¹ وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره مثل قولك: أتيتك غدا وسأتيك أمس.

*الربط العاملي: تقابله نظرية العامل عند العرب.

7.3- المدرسة التداولية (النحو الوظيفي): إذا ما أمعنا النظر في كتب التراث العربي فإننا نحصر العلوم التي حاولت أن تجعل العربية موضوعا لها، وهي تشمل علم النحو والبلاغة والأصول، ويرى المتوكل أنه يمكن تصنيف الدراسات التي جعلت اللغة العربية موضوعا لها تصنيفات متنوعة بحسب وجهات النظر المختلفة التي انطلقت منها. فهذا ابن جني يشير في تعريف اللغة إلى أنها وسيلة للتعبير عن الأغراض، أدائها الصوت، وهذا يعني أنها تؤدي وظيفة التواصل الاجتماعي بين الأفراد، وتعبّر عن أفكارهم.

*التداولية: هي دراسة اللغة من حيث الاستعمال، وهذا نجده عند البلاغيين العرب الذين يعرفون البلاغة بأنها مطابقة الكلام بمقتضى الحال؛ لذلك يقولون (لكل مقام مقال)

* الإيثر والذيل: وتعني في النحو العربي التوابع والبدل على الترتيب.

*الاستلزام الحوارية: تقابله التورية.

*أفعال الكلام: يقابله الأسلوب الإنشائي والخبري.

الخاتمة:

وفي ختام هذا الموضوع الذي فتح لنا أبوابا موصدة استطعنا أن نجيب عن تلك الأسئلة التي كانت تجوب أذهاننا، توصلنا إلى إفراز النتائج الآتية:

¹ -سيبويه- الكتاب ج 1 ص 25-26

*درس اللغويون العرب القدامى اللغة العربية دراسة دقيقة رغم غياب الوسائل والأجهزة الحديثة.

*اللغة نظام: هذا شعار تبنته النظريات اللسانية الحديثة في دراستها للغات البشرية. إلا أن المتأمل في قضايا التراث يجد أن العلماء العرب درسوا اللغة العربية من جميع مستوياتها ونظمها، بدءاً بالنظام الصوتي الذي كان فيه الخليل سابقاً بفضل ذكائه وعبقريته الفذتين، ولعل تأليفه لمعجم ضخّم في المراحل الأولى من نشأة الدراسات اللغوية العربية دليل قاطع على ذلك، كما أن ابن جني يعتبر رائد الصوتيات الحديثة دون منازع رغم الفترة الزمنية الفاصلة بين التراث اللغوي والنظريات اللسانية الحديثة، ثم انتقلوا إلى النظام الصرفي فالنحوي الذي يعتبر فيها سيبويه رائداً لهما، وبعدها النظام الدلالي فالمعجمي اللذين وصلا إلى أبعد محطة بفضل جهود الجاحظ والجرجاني وابن السكيت وكذا الخليل والأزهري والجوهرى في المستوى المعجمي.

لم يصل الدرس اللساني العربي الحديث إلى ما وصلت إليه النظريات اللسانية الحديثة وهذا راجع إلى التشتت الذي عرفه العرب المحدثون، خاصة عندما انقسموا إلى مؤيد للتراث ومعارض له، وكذلك حاولوا إسقاط مبادئ النظريات اللسانية الحديثة على اللغة العربية بشكل أو بآخر دون مراعاة خصوصية اللغة العربية.

يعد تصنيف مصطفى غلفان للكتابات اللسانية العربية الحديثة أدق تصنيف على الإطلاق؛ ذلك أنه اعتمد على معايير ثلاث وهي الموضوع والمنهج والهدف، هذه المبادئ التي غابت عن العلماء العرب المحدثين، ومن هذه المعايير صنف الكتابات إلى ثلاثة أصناف كتابات تمهيدية، كتابات خاصة بقراءة التراث أو إعادة قراءتها وكتابات لسانية عربية متخصصة.

إن الشيء الذي أثار انتباهنا قبل الغوص في هذا الموضوع الشيق هو المفارقات العجيبة والتقاطعات الجوهرية بين التراث اللغوي العربي واللسانيات المعاصرة، إذ توصلنا إلى أن التراث غني، ثري، فريد من نوعه بما يحمله من ثروات لغوية وبشرية لا يستهان بها، فلو أن علماء الغرب عرفوا قيمة هذا الموروث لوصلوا إلى أبعد مما وصلوا إليه.

إن التراث اللغوي العربي تراث ثري بالزخم المعرفي اللغوي، ويضاهي ويضارع أحدث النظريات اللسانية المعاصرة على الإطلاق، وهذا بفضل هؤلاء العباقرة الذين سخرُوا علمهم لخدمة اللغة العربية والحفاظ على القرآن الكريم، إلا أنه يجب أن نشير إلى حقيقة لا يمكن

إغفالها، وهي أن هنالك فرقا جوهريا بين الدرس اللساني الحديث والدرس اللغوي القديم، وهو أن تراثنا لم يعتمد على نظرية ومنهج معين، فجل الدراسات اللغوية العربية وجدناها متناثرة في ثنايا الكتب هنا وهناك، وتتفوق النظريات اللسانية في هذا الجانب؛ كونها تعتمد على مناهج متعددة في دراستها للغة وينتهي علمائها إلى مدارس معينة..

وفي الأخير يمكن القول إنه يجب عدم فصل التراث عن اللسانيات الحديثة، فلا نتشبهت بالأصالة إلى حد ترك المعاصرة كي لا ينقطع التاريخ عن الحياة، ولا بد أن نكون مفكرا لسانيا عربيا يدرس اللغة العربية ويجعلها موضوعا له لا مفكرا عربيا لسانيا يفرض اللسانيات على اللغة العربية.

المراجع:

- 1- أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب: عالم الكتب، ط6، 1988.
- 2- الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، مراجعة علي البخاري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج2.
- 3- بريجيس تراسر: التطور النحوي للغة العربية، تعليق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر: 1982.
- 4- تمام حسان، الأصول: دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة. البلاغة عالم الكتب، 2000.
- 5- ابن جني: الخصائص، تحقيق: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، ج2.
- 6- حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتب الجديد المتحدة، ط1، 2009.
- 7- حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي. دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، 1996.
- 8- سيبويه: الكتاب: المطبعة الأميرية، بولاق مصر، 1317هـ، ج2.
- 9- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: في علم المعاني، تصحيح: محمد عبده
- 10- محمد التركزي، تعليق: محمد رشيد رضا. دار الجبل، بيروت لبنان، 1994.
- 11- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس والمنهجية، جامعة الحسن الثاني عين الشق، رسائل و أطروحات، رقم4. 1991.